ـ ٤ ـ

علاقة الخلافة الإسلامية بمنطقة سوس ابان عصر الولاة

قراءة وملاحظات

لماذا نتجاوز عادة دور أكادير في الحقبة الوسيطية؟ من نافلة القول إنّ علاقة مدينة أكادير بمنطقة سوس تتجاوز مستوى العلاقة الجغرافية البحتة. ذلك أن دراسة هذه المدينة انطلاقاً من طرح تاريخي، تستدعي بداهة الحديث عن سوس كمهد لنشأتها. ولعل المكانة التي حظيت بها أكادير في مطلع العصر الحديث، مقابل ضمور سوس كمنطقة تاريخية «ساخنة» في العصر الوسيط، يقيم الدليل على الارتباط العضوي بين منطقة كانت تعتبر حتى نهاية القرن الخامس عشر «ميناء» الصحراء ومفتاح علاقة الشرق بالغرب، لتورث مكانتها تلك مع تحول طرق التجارة العالمية نحو المحيط الأطلسي لأكادير التي ستغدو منذئذ باب سوس الساحلي وإحدى المحطات الهامة التي اتجهت نحوها أنظار الرأسمالية الأوروبية.

إن العلاقة الوثيقة بين أكادير الحديثة ودورها كموقع دينامي في منطقة سوس خلال العصر الوسيط لم يكشف عنه النقاب بعد، مما يشكل ثغرة يجب أن تتجه إليها همة الباحثين. فإلى عهد قريب كان بعض المؤرخين الغربيين يزعمون أن منطقة أكادير لم تعرف وجوداً بشرياً قبل وصول البرتغاليين إليها، إلا أن هذا الزعم فُند بفضل ما أبانت عنه رسالة وردت في المصادر الدفينة لتاريخ المغرب، وجهها سكان ماسة إلى عمانويل الأول ملك البرتغال سنة ٩١١ هـ/١٥٠٥ م. وتؤكد هذه الرسالة وجود مركز «أكادير الأربعاء»، وهو سوق كان ينعقد كل يوم أربعاء كما ذهب إلى ذلك الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله[١]، والباحثة لوتورنو Letourneau[٢]، وهو ما ذكره ليون الأفريقي[٣] الذي أشار إلى هذا المركز باسم «أكادير كسيمة». بل إن ابن الأحمر[٤] يورد اسم «قلعة أكادير» في العصر

---

(١) **معلمة المدن والقبائل**، المحمدية، ١٩٧٧، ص ٤٧.

(٢) انظر مقاله عن اكادير في: *L'Encyclopédie de l'Islam*. Paris - Leiden E.J., Brill, T.I.P 252 - 53.

(٣) **وصف افريقيا**. الرباط، ١٩٨٠، ص ٩٤

(٤) **بيوتات فاس الكبرى**. الرباط، ١٩٨٠، ص ٩٤

الموحدي عند حديثه عن بيت الطاهريين، مما ينهض حجة على أن المنطقة التي شيدت فيها أكادير الحالية عرفت نتاجاً حضارياً هاماً قبل العصر الحديث. شفيعنا في هذا التخريج نص أورده البكري[1] يقول فيه: «وتسير السفن من ساحل نول إلى وادي السوس ثلاثة أيام، ثم من وادي السوس إلى مرسى أمقدول، وهو مرسى مشتى مأمون، وهو ساحل بلاد السوس».

انطلاقاً من هذا النص، وإذا اتفقنا مع ما ذهبت إليه جمهرة من الباحثين أن أمقدول تعني Mogador أي الصويرة الحالية[2]، فإن هذا يدل على أن بمصب وادي سوس كان يوجد ميناء هام تعبره السفن، كان بمثابة الجذور التاريخية لأكادير الحالية، ويبدو أن هذا الميناء ظل نشيطاً في عصر الموحدين حيث أشير إليه كمرسى من مراسي السوس الأقصى[3]، وهو ما يمكن أن يقوم دليلاً على نشاط المنطقة وديناميتها في العصور الوسطى. إلا أن افتقارنا إلى نصوص كافية يجعلنا نقصر اهتمامنا على منطقة سوس، باعتبارها المهد الذي نشأت فيه أكادير، وشكلت بوابته الساحلية.

غير أنه يجدر بنا في البداية تحديد الحيز الجغرافي للسوس بشيء من الدقة. فالرحالة العرب يميزون عادة بين كورة السوس الأدنى ومدينتها طنجة وكورة السوس الأقصى ومدينتها طَرْقَلة. ويحدد ياقوت الحموي[4] المسافة الفاصلة بين السوس الأدنى والأقصى بمسيرة شهرين. بينما يذهب الحميري[5] إلى عدم التمييز بينهما واعتبارهما منطقة واحدة، والغالب على الظن أن الرأي الأول أقرب إلى الصحة خاصة وأنه يلتقي مع تحديدات الجغرافيين العرب الآخرين[6] وبناء على ذلك فإن المنطقة التي تشكل محور دراستنا هي منطقة السوس الأقصى التي سنلقي بعض الأضواء على علاقتها بالخلافة الإسلامية.

من الثابت أن وشائج الصلات توثقت بين سوس ودولة الخلافة في الشرق إبان **عصر**

---

(١) **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب**. الجزائر، ١٩١١، ص ٨٦.

(٢) عبد العزيز بنعبد الله: م.س.، ص ٥٢.

(٣) ابن الأحمر: م.س.، ص ١٦

(٤) معجم البلدان، ج٣، بيروت (دون تاريخ)، ص ٢٨٠، وقد أثار تعريف ياقوت لسوس انتباهي إذ يذكر أن منطقة سوس بالمغرب كانت تسمى في العصر الروماني «قمونية». فهل معنى ذلك أن العرب هم الذين أطلقوا عليها هذا الإسم؟ إن المصادر العربية لا تشير إلى ذلك إطلاقاً، مما يجعل هذا التساؤل مجرد افتراض. لكن ما يدعم مشروعية هذا الافتراض فضلاً عن الحجة السابقة هو أن إحدى المناطق التي فتحها العرب في خوزستان كانت تسمى سوس وهي منطقة خصبة، فليس من المستبعد أن يكون العرب قد أطلقوا هذا الإسم على المنطقة المغربية لشبهها بها من حيث خيراتها. يقول ياقوت في هذا الصدد إن سوس هي تعريف للشوش التي هي كلمة فارسية ومعناها الحسن والنزه والطيب، وهو ما ذهب إليه الحميري حين فسر كلمة شوش بمعنى الجودة. انظر **الروض المعطار في خبر الاقطار**. بيروت، ١٩٧٥، ص ٣٢٩

(٥) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(٦) انظر على سبيل المثال: الإدريسي: **«وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية»**. قطعة مأخوذة من **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**. طبعة الجزائر ١٩٥٧، ص: ٣٩ ونحن لا نوافق تعريف عبد الله انيس الطباع محقق كتاب **فتوح إفريقية والاندلس** لابن عبد الحكم حيث يذكر بأن سوس هي مدينة في جنوب المغرب الأقصى فهي منطقة وليست مدينة. انظر هامش رقم ١ من ص ٥٨ من الكتاب المذكور ـ طبعة بيروت ١٩٦٤.

الولاة(*)، وتأصلت العلاقات بين الجانبين رغم بعد المسافة والصعوبات التي كانت تطرحها وسائل الاتصال آنذاك. بل إن الاهتمام بمنطقة سوس شكَّل حيزاً هاماً من البرنامج السياسي لدولة الخلافة. وتمخضت عن هذه العلاقات نتائج بعيدة الغور إلى درجة أنها أثَّرت في مصير المنطقة، وأرست المعالم الأساسية لصيرورتها التاريخية، وحددت بالتالي آفاق مستقبلها السياسي والاقتصادي.

ورغم أهمية هذه العلاقات، ودورها في تشكيل تاريخ المنطقة وتحديد هويتها، فإنها لم تنل حظها من الدراسة والعناية من جانب المشتغلين في حقل التاريخ، باستثناء بعض الكتابات الأجنبية التي اهتمت بتاريخ سوس المعاصر، وبجغرافيتها على الخصوص، لارتباط ذلك بالأهداف الاستعمارية، ومن ثم فإننا لازلنا نفتقر إلى دراسة جادة عن تاريخ سوس وعلاقتها بالخلافة الإسلامية في عصر الولاة. ولعل هذا الافتقار يعزى إلى المشكلات العديدة التي تعتور من يتصدى لدراسة هذا الموضوع، وهي مشكلات اعتاد عليها الباحثون كلما تعلق الأمر بحيز زمني ضيق كعصر الولاة، وبدراسة مونوغرافية لمنطقة لها أصالتها وميزاتها الخاصة عرقياً ولغوياً كسوس.

وقبل طرق المشكلات والصعوبات، لا بد من الإشارة إلى مسألة منهجية تخص العلاقة بين سوس في عصر الولاة كظاهرة جهوية، وتاريخ المغرب والشرق الإسلامي كإطار شمولي ومرجعي لتفسير الظواهر التاريخية الخاصة بمنطقة سوس، ومن ثم فإن مقولة «سيولة التاريخ الإسلامي العام» تظل قاعدة منهجية لصاحب هذه الدراسة.

بعض المشكلات الأولية:

لا مراء في أن الدارس لعلاقة الخلافة الإسلامية بسوس في عصر الولاة يصطدم ببعض الصعوبات والعراقيل. ويأتي في مقدمتها مشكل انعدام كتابة بربرية محلية. فمما لا شك فيه أن العنصر المحلي كان إما شاهد عيان، أو راوياً لأخبار منطقته من مصادر موثوق بها. غير أن غياب كتابة باللغة البربرية، حال دون تسجيل ما احتفظت به ذاكرته من أحداث. والنتيجة هي أن بربر سوس لم يخلِّفوا ـ حسب حدود معرفتي ـ تراثاً محلياً مكتوباً يمكِّن من إماطة اللثام عن تاريخ منطقتهم في هذه المرحلة الباكرة.

ومن الملاحظ أن الفقهاء لم يبدأوا في الاهتمام ببعض الأعراف والعادات السائدة لدى أهل سوس إلا في القرن السادس عشر الميلادي. وفي كل الأحوال جاءت كتاباتهم باللغة العربية. والمحصِّلة النهائية لهذه الإشكالية، هي أن تاريخ سوس لم يُكتب بلغتها المحلية، ولا من طرف أبنائها قط، ومن ثم لم تُعرف سوس سوى في مؤلفات المشارقة في العصر الوسيط، ومصنفات الأوروبيين اليوم. وبما أن هؤلاء لم يقيموا في المنطقة، ولم يختلطوا بأهلها، فإنهم عجزوا عن الإحاطة بتاريخها، وتقديمه في إطاره العلمي الصحيح، وفي كل هذا خسارة للباحث المعاصر الذي يتوخى الإلمام الدقيق بتاريخ

(*) بدأ عصر الولاة في الغرب الإسلامي منذ فتح إفريقيا (تونس) وتأسيس القيروان سنة ٥٥هـ/٦٧٥ م. من طرف عقبة بن نافع. وقد سمي بعصر الولاة لأن الخليفة الأموي كان يعيِّن والياً ينوب عنه في حكم هذه المنطقة واستمر إلى قيام الدول المستقلة بالغرب الإسلامي كدولة بني مدرار سنة ١٤٠هـ/٧٥٧ م، ودولة بني رستم سنة ١٦٠هـ/٧٧٦ م ودولة الادارسة سنة ١٧٢هـ/٧٨٨ م، ودولة الاغالبة في تونس سنة ١٨٤هـ/ ٨٠٠ م.

سوس في عصر الولاة.

وحتى على صعيد اللغة العربية لا يمكن إلا أن نأسف لانعدام مصنفات مونوغرافية حول سوس خلال العصر الوسيط. فحسبما نعلم، فإن أقدم ما ألف يرجع إلى القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) حيث صنّف أحمد بن عبد الله السملالي (ت. سنة ١٠٩٣ هـ) مصنفاً تحت عنوان **مجموع في رجال جزولة بسوس**(١).

أما الوثائق العربية التي يمكن أن تساعد الباحث على تكوين فكرة محترمة عن تاريخ سوس، فتُعد اليوم في حكم المفقودة. وسبب ذلك يرجع دون شك إلى أن تنظيم الإدارة في المنطقة لم يكن قد اكتمل في عصر الولاة. وحتى تلك التي ظلت بحوزة الأمراء أو الولاة، سواء في عاصمة الخلافة أو إفريقية أو مصر، فإن يد القدر عبثت بها، مما يجعل مهمة الباحث مهمة عسيرة ومضنية للغاية.

وهل يمكن في غياب هذه الوثائق الاعتماد على المصادر العربية التي وصلت إلينا سالمة؟ إن المؤرخين في الشرق الإسلامي كانوا هم السباقين إلى تدوين أخبار المغرب وضمنه سوس. ولما كان المغرب يشكل ولاية من ولايات الأمبراطورية الإسلامية النائية، فإنه لم يحظ سوى بنصيب ضئيل من الأخبار التي وردت في إطار السياق العام لتاريخ الإسلام، فكم بالأحرى منطقة سوس التي لم تكن سوى جزء من هذه الولاية، ناهيك عن كون المعلومات الطفيفة التي وردت بخصوصها، جاءت متناثرة مشتّتة عبر السنين بسبب طريقة الحوليات التي جبل عليها الاخباريون الأوائل.

وبما أن المؤرخين المشارقة كانوا يعكسون الأيديولوجية الرسمية للنظامين الأموي والعباسي، وبحكم أن منطقة سوس كانت تشكل بؤرة من بؤر التوتر، ومعقلاً قوياً من معاقل المعارضة للحكم في كل من دمشق وبغداد، فإن معظم هؤلاء المؤرخين، تعاملوا مع أهالي سوس كطرف في النزاع، ولذلك فإن الروايات التي أوردوها بصدد منطقتهم تميزت بالتحامل والتقتير والبعد عن الانصاف(٢).

بينما نجد المصادر المغربية تحمل عيباً مزدوجاً فهي لم تهتم سوى بمدن الداخل (فاس ومراكش...) في حين تندر المعلومات التي تزودنا بها حول مدن الساحل ونظيرتها في المغرب الصحراوي وضمنه سوس(٣)، وهي من جهة ثانية تتضمن أخباراً متناقضة، وهذه ظاهرة لاحظها جل الباحثين ـ مغاربة وأوروبيين ـ مما يزيد من تعقيد عمل المؤرخ لتاريخ سوس وعلاقتها بدولة الخلافة.

يُضاف إلى ذلك عيب لا يقل خطورة، وهو أن المؤرخين المغاربة المتأخرين كانوا ميالين إلى النقل دون روية ولا تمحيص، ولذلك أثبتوا ما جاء في مصنفات السابقين، وبالتالي ظلت الروايات ذاتها تتردد، بكل ما علق بها من مقت وكراهية لأهل سوس. وحتى ابن خلدون المعروف بنزاهته وروحه

(١) انظر عن هذه المؤلفات الخاصة بسوس: ابن سودة: **دليل مؤرخ المغرب الأقصى**، ج١، الدار البيضاء، ١٩٦٠، ص ٢٩، ٤٦، ٥٥، ٥٦...

(٢) من بين أمثلة التحامل ما يذكره ابن الأثير عن ثورة الخوارج التي ساهم فيها بربر سوس مساهمة فعالة بقوله: «إن الله تعالى هزم الخوارج ونصر العرب». انظر **الكامل في التاريخ**، ج٤، بيروت، ١٩٨٤، ص ٢٢٤.

(٣) العروي: **مجمل تاريخ المغرب**. الرباط، ١٩٨٤، ص ١٢٤

النقدية لم يساهم في تبديد غيوم هذا المشكل.

وفي مقابل ذلك لا نجد كتابات بيزنطية أو رومانية تتيح لنا مقارنتها بالروايات العربية فرصة لتحري الحقيقة. ونعتقد أن كتابة راقية لتاريخ سوس، لا تأتي بالتعويل على المصادر العربية فقط.

ودون السقوط في نظرية كوتييه Gautier[1] المتهورة والقائلة بأن تاريخ المغرب بعد انتهاء السيطرة البيزنطية أصبح مشوشاً بأحداث ليس لها بداية ولا نهاية، سنحاول ترتيب الأخبار المبعثرة والمتناقضة في آن، مستعينين في ذلك ببعض المصادر الدفينة[2] في محاولة لقراءة علاقة دولة الخلافة بسوس إبّان عصر الولاة.

وأول ما يسترعي الانتباه في هذا الشأن، هو أن البعد الجغرافي والمسافة الشاقة الفاصلة بين سوس ودمشق لم يحولا دون ميلاد هذه العلاقات وتجذرها بين الجانبين، بل إن دولة الخلافة أولت اهتماماً خاصاً بسوس على الاهتمامات الأخرى. وحسبنا أن المصادر التي عالجت أحداث هذه الفترة انصبت بشكل مثير للانتباه على سوس دون المناطق الأخرى. فلماذا هذا الاهتمام؟ وكيف حدث هكذا فجأة؟ وما هي وسائله وأهدافه ونتائجه؟

باستثناء رواية أوردها صاحب **المعسول** وشك فيها بعد مناقشتها[3]، ولا نستطيع التأكيد على أن اتصالاً ما قد حدث قبل أن تشرع جحافل الجيش الإسلامي بقيادة عقبة بن نافع في اقتحام منطقة سوس ابتداء من النصف الثاني من القرن الأول الهجري، ولعل ذلك يؤكِّد أن العلاقات بين الجانبين بدأت بطابع عسكري.

العلاقة العسكرية:

ثمة تساؤل يلفت نظر الباحث وهو بصدد معالجة هذه العلاقة: هل كانت أنظار الجيش العربي متجهة إلى سوس منذ البداية؟ وبالتالي هل كانت هذه الأخيرة تدخل برنامج الفتح الإسلامي؟

إن النصوص التاريخية تتفق في معظمها على رواية مؤداها أن يوليان حاكم منطقة طنجة، هو الذي أشار على عقبة بن نافع بالتوجه إلى منطقة سوس. ويذكر الناصري[4] في هذا الشأن رواية نقلها عن صاحب الجمان يقول فيها: «افتتح عقبة المغرب ونزل على طنجة فحاصرها، واستنزل ملكها يوليان الغماري، وكان نصرانياً فنزل على حكمه بعد أن أعطاه أموالاً جليلة، ثم أراد عقبة اللحاق بالجزيرة الخضراء من عدوة الأندلس فقال له يوليان: أتترك كفار البربر خلفك وترمي بنفسك في بحبوحة الهلاك مع الفرنج ويقطع البحر بينك وبين المدن، فقال عقبة: وأين كفار البربر، قال ببلاد

---

(١) *Le passé de l'Afrique du Nord: Les siècles obscurs*. Paris, 1952, p.223.

(٢) سنقتصر على الاعتماد على كتب الجغرافيا والرحلات والطبقات والتراجم.

(٣) يورد المختار السوسي ما يزعمه الرجراجيون القاطنون في سوس من صحبتهم للرسول عليه السلام، إلا أن المرحوم السوسي يرفض هذا الزعم. انظر **المعسول**، ج٣، الدار البيضاء، ١٩٦٠، ص ٣٢٤.

(٤) **الاستقصاء**. ج١، الدار البيضاء، ١٩٥٤، ص ٨١ ـ ٨٢.

السوس». والرواية نفسها يذكرها ابن الأثير[١] مع اختلافات طفيفة.

ويستشف من خلال هذه الروايات، أن الهدف الذي حدا بعقبة إلى التوجه نحو سوس كان هدفاً دينياً يرمي إلى اجتثات جذور المجوسية التي كانت تسود المنطقة[٢].

إلا أننا لا نعرف بالضبط السر الكامن وراء الانتصارات العسكرية التي حققها العرب في منطقة سوس. هل كانت هذه الأخيرة متخلفة عسكرياً واقتصادياً وسياسياً؟ بالتأكيد لا. فغنى منطقة سوس ـ كما سنفصل ـ مسألة لا يرقى إليها الشك. بل إنها كانت تعرف حركة اقتصادية دائبة منذ القدم بفضل ترويج اليهود لتجارتهم فيها كما أكد ذلك بعض الباحثين[٣]. وعلى المستوى السياسي تشير المصادر العربية إلى أن المنطقة حكمها ملك يدعى **مزدانة**[٤]. والراجح أنها كانت مملكة قوية ليس بفضل منتوجاتها الاقتصادية فحسب، بل بوجود طاقة بشرية هائلة شكّلت كتلة ديموغرافية هامة كانت السر الكامن وراء عظمتها فيما نرجح[٥].

وبالرغم من مقاومة بربر سوس، فقد تمكن من حصد رؤوسهم، ومزق جنوده جموعهم وقتلوهم «حتى ملّوا» على حد تعبير ابن خلدون[٦]، بل تتبعوا فلولهم إلى صحراء لمتونة «لا يلقاهم أحد إلا هزموه»[٧].

غير أن علاقة الغزو لم تنته بانتهاء حملات عقبة، ذلك أن أصوات المعارضة في سوس لم تخرس. ويغلب على الظن أن سكان المنطقة أعادوا تنظيم صفوفهم تحت قيادة أميرهم مزدانة، وهذا ما يفسر إرسال موسى بن نصير حملة عسكرية أخرى جاعلاً على قيادتها ابنه مروان الذي قدر له أن يستأصل شأفتهم حتى «قتلوا قتلة الفناء» كما يذكر ابن قتيبة[٨]

ومهما كانت درجة صدق هذه الرواية، فإن شك بعض الباحثين[٩] في صحة خبر وصول أبناء

---

(١) **الكامل**. ج٣، ص ٣٠٨ قارن مع البلاذري: **فتوح البلدان**. بيروت، ١٩٧٨، ص ٢٣٠ ويلاحظ أن البلاذري الذي اشتهر بذكر كيفية فتح البلدان قد تغافل عن ذكر هذا الحدث أثناء سرده لغزوة عقبة. وهذا راجع إلى الملاحظة التي ذكرناها في المتن حول تقصير كتب المؤرخين المشارقة في ذكر أخبار المغرب. الملاحظة نفسها تنسحب على ابن عبد الحكم. انظر: **فتوح إفريقية والأندلس**، ص ٥٨ وما بعدها.

(٢) ابن خلدون: **كتاب العبر**، ج٦، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٠٨

(٣) MEUNIE: *Le Maroc Saharien des origines à 1670.* Klincksieck, 1982, p.56.

(٤) ابن عذاري: **البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب**. بيروت، ١٩٨٠، ج١، ص ٤٥.

(٥) يذكر ابن الأثير وهو يتحدث عن اصطدام أهل سوس بعقبة بن نافع: «وقد اجتمع له البربر في عالم لا يحصى»: مما يدل على كثرتهم العددية. انظر **الكامل**. ج٣، ص ٣٠٨

(٦) **كتاب العبر**. م.س. ج٦، ص ١٠٨

(٧) الناصري: م.س.، ص ٨٢.

(٨) **الامامة والسياسة**. ج٢، ص ٥٨. وانظر أيضاً:

TERRASSE: *Histoire du Maroc des origines à l'établissement du protectorat Français* T.1 Casablanca, 1946, p. 48.

(٩) العروي: م.س.، ص ١١٢.

موسى بن نصير إلى السوس الأقصى له ما يبرره حتى من الروايات العربية التي تذكر أن أهل سوس استأمنوا على أنفسهم عندما رأوا ما نزل بإخوانهم من بربر السوس الأدنى[١]، إلا أن تناقض الروايات العربية يجعل خيط الحقيقة يفلت من يد الدارس. فابن عذاري الذي يذهب إلى تأكيد الروايات السابقة، يذكر في الوقت نفسه **مزدانة** ملك السوس الأقصى ضمن الملوك الذين افتتحت مدائنهم وجعلهم موسى بن نصير ضمن سباياه عندما اتجه إلى المشرق[٢].

ومهما كان الأمر، فإن العلاقة العسكرية بين دولة الخلافة وسوس لم تنته بالمرة، إذ تعاقبت البعثات العسكرية من قبل دمشق. ففي سنة ١١٦ هـ نظم ابن الحبحاب حملة عسكرية نحو السوس وأرض السودان[٣]. وفي السنة التالية أعاد حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة الكرة «فظفر ظفراً لم ير أحد مثله قط»[٤]. وفي سنة ١٢٨ هـ اجتاحت جيوش عبد الرحمان بن حبيب والي إفريقية مركز إيجلي، وأثخنت في الأهالي هناك[٥]. وتواصلت الحملات نحو السوس الأقصى والسودان بدون انقطاع.

وعلى ضوء هذه البعثات العسكرية المتكررة، ما على المؤرخ المنصف إلا أن يتساءل لماذا ظلت علاقة الغزو تشكل جزءاً هاماً من علاقات الخلافة الإسلامية بمنطقة سوس؟ لماذا لم تتكرر الحملات نفسها وبالحدّة نفسها نحو المناطق الأخرى؟

إن شطراً كبيراً من الجواب يجد تفسيره لا في الموقع الجغراسي لمنطقة سوس فحسب، بل في أهميتها الاقتصادية التي استرعت انتباه الخلافة، فذهبت إلى صياغة علاقتها معها على ذلك الأساس.

العلاقات الاقتصادية:

لم يكن ربط دولة الخلافة لعلاقة اقتصادية مع سوس أمراً عفوياً. بل يخيل إلينا أن تعاقب البعثات العسكرية لم يكن إلا تمهيداً لاستثمار منطقة عرفت بوفرة خيراتها وغناها المفرط[٦]. ولا أدلّ على هذا الغنى مما وصفها به الرحالة العرب. فالأصطخري ينعتها بأنها «ذات سعة وخصب»، وهو ما أشار إليه صاحب **كتاب الاستبصار**[٧]. ويصفها ابن حوقل[٨] بقوله: «ليس بالمغرب كله بلد

---

(١) ابن خلكان: **وفيات الأعيان**. بيروت، (دون تاريخ)، ج٥، ص ٣٢٠ ـ انظر كذلك النويري: **نهاية الأرب في فنون الأدب ـ وتاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط**. تحقيق الدكتور مصطفى ابو ضيف أحمد، الدار البيضاء، ١٩٨٥، ص ٢٠٠

(٢) **البيان**. ج١، ص ٤٢.

(٣) ابن الأثير: م.س.، ص ٢١٩

(٤) البلاذري: م.س.، ص ٢٣٣

(٥) MEUNIE. op.cit., p.191.

(٦) **المسالك والممالك**. ليدن، ١٧٨٠، ص ٣٩.

(٧) مجهول: **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**. الدار البيضاء، ١٩٨٥، ص ٢١٢.

(٨) **صورة الأرض**. م.س.، ص ٩٠.

أجمع ولا ناحية أوفر وأغزر وأكثر خيراً منها» ويعدّد خيراتها المتمثلة في الجوز واللوز والنخل والقنب والسمسم وقصب السكر الذي ذكر الادريسي(1) أنه «ليس على قرار الأرض مثله طولاً وعرضاً وحلاوة وكثرة ماء». وحسبنا أن الحميري(2) سمى بلاد السوس «ببلاد السكر». ناهيك عما تميزت به إيجلي قاعدة السوس الأقصى من بساتين متصلة، وفواكه متنوعة يأتي في مقدمتها التمر الذي كان من الكثرة إلى درجة أن أسعاره رخصت، كذا السكر الذي يباع القنطار منه بمثقال أو مثقالين(3). يضاف إلى هذه المنتوجات ما أورده البكري(4) حول كثرة شجر الهرجان الذي يستخرج منه زيت طيب، كذا العسل الذي فاق عسل الأمصار شهرة.

أما المعادن فقد زخرت بها سوس كمعدن الفضة والنحاس والتوتيا(5). ولعل هذه الخيرات أسالت لعاب الخلافة في دمشق، ومن ثم لم تكن الحملات العسكرية تتم بمحض الصدفة. فمما لا شك فيه أن الرغبة في احتكار المعادن من طرف الخلفاء، واستغلال المنتوجات الفلاحية النادرة في الشرق، وولعهم الشديد بسكر سوس، كذا تعلقهم بضرورة مراقبة التجارة بين الشرق ومصر والسودان، كان وراء اهتمامهم بالمنطقة(6) هذا في الوقت الذي كانت خزينة الدولة في دمشق تعاني من الإفلاس والعجز، نتيجة انقطاع الغزو الخارجي الذي كان يشكل مورداً هاماً من مداخيلها ونتيجة النفقات العسكرية الباهظة التي كانت تخصصها للقضاء على الثورات المتعددة.

وبالمثل، فإن الاهتمام بذهب السودان وإن كان اهتماماً قديماً فإن دولة الخلافة أولته اهتماماً أكبر. ولا غرو فإن سيطرتها على السوس سمحت بالحصول على مصادر هامة وجديدة صدرت نحو بلدان البحر المتوسط(7). وهذا ما يفسر حرص الخلفاء الأمويين على ضرورة إيجاد الطرق لايصاله ومراقبة أهم الخطوط التي يمكن أن يتبعها. ولما كانت أكثر الطرق المتبعة آنذاك هي الرابطة بين السودان والمغرب الشرقي ـ وهي طُرق خالية من قطاع الطرق ـ فإنهم فكروا جدياً في فرض السلطة عليها.

لقد اعتُبرت دولة الخلافة السوس الأقصى منطقة عبور للوصول إلى ذهب السودان. والمصادر العربية عندما تتحدث عن أي غزوة عربية للسوس، تردفها دائماً بغزوة أخرى نحو السودان(8).

---

(1) **وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية**، م.س.، ص ٣٩

(2) **الروض المعطار**، م.س.، ص ٣٢٩

(3) مجهول: **كتاب الاستبصار**، م.س.، ص ٢١٢

(4) **المغرب**، م.س.، ص ١٦٢ ـ انظر أيضاً: الحميري: م.س.، ص ٣٣٠

(5) المراكشي: **المعجب**. الدار البيضاء، ١٩٧٨، ص ٥٠٨ ـ ٥١٠

(6) MEUNIE: op.cit., p.58.

(7) Ibid, p.59.

(8) الناصري: م.س.، ص ٥٠ ويقول متحدثاً عن حبيب بن ابي عبيدة بن عقبة الذي بعثه عبد الله بن الحبحاب غازياً ارض المغرب: «فانتهى إلى السوس الأقصى وقاتل مسوفة ثم تخطاهم إلى تخوم السودان وأصاب من مغانم الذهب والفضة والسبي شيئاً كثيراً».

وتجسد تدخلها الاقتصادي المباشر عمليا في مشروعات أقدم على تنفيذها بعض الأمراء المروانيين. فقد شيد عبد الرحمان بن مروان أخو الخليفة الأموي محمد الجعدي ساقية لجلب الماء إلى إيجلي[1]. كما قام أحد الأمويين ما بين عامي ١١٤ ـ ١٢٨ هـ ببناء مجموعة من الآبار على الطريق المؤدية إلى السودان[2].

ويبدو أن هذه السياسة الاقتصادية جاءت متطابقة مع السياسة العامة التي كان الوليد بن عبد الملك قد بدأ ينهجها منذ سنة ٨٨ هـ حيث أثر عنه أنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز كتاباً يأمره فيه بتسهيل الثنايا وحفر الآبار[3]

وعلى أية حال، فإن تدخل الخلافة الإسلامية في المجال الاقتصادي لمنطقة سوس ظهر واضحاً، وسيلعب دوراً ايجابياً في تنمية هذه المنطقة خاصة بالنسبة لزراعة قصب السكر. وحسبنا أن البكري[4] نسب تعمير وادي سوس إلى عبد الرحمان بن مروان الآنف الذكر.

يتضح إذن أن علاقة الخلافة بسوس كانت تحكمها الرغبة في الاستئثار بموارد المنطقة الاقتصادية، إلى جانب الاهتمام بالجوانب الأخرى التي سنأتي على ذكرها بعد حين. ولحسن الحظ فإن الاهتمام الاقتصادي لعب دوراً هاماً في تعمير المنطقة. فماذا يمكن القول عن العلاقة الاجتماعية؟

العلاقات الاجتماعية:

تشكلت العلاقة الاجتماعية بين دولة الخلافة وسوس على أساس الغلبة وعدم تكافؤ موازين القوى. وقد جسد الولاة الذين عُينوا على المغرب هذه القاعدة قلباً وقالباً. فباستثناء واليين هما محمد بن يزيد الذي ولاه سليمان بن عبد الملك أعمال إفريقية والمغرب، وأبو المهاجر الذي تولى الولاية نفسها من قبل عمر بن عبد العزيز، فإن معظم الولاة مالوا إلى الجَور والاستبداد، ومثّلوا كل صور الظلم الاجتماعي. فالمصادر تصف الوالي يزيد بن أبي مسلم بأنه «كان ظلوماً غشوماً»[5]. وأنه كان يضع الجزية على البربر الذين أسلموا ـ وضمنهم سكان سوس ـ «على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم كفار»[6]

ولم تكن الانتفاضة التي قامت بها سوس ضد عاملها إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب إلا بسبب سوء سيرة هذا الأخير وانحرافه[7]. وكان ابن الحبحاب نفسه يمثل قمة الجور، ولذلك نجد ابن عذاري ينحو عليه باللائمة، ويصفه بالتعسف وسوء التدبير، ويحمله مسؤولية ثورة المغاربة بمن

(١) البكري: م.س.، ص ١٦١
(٢) المرجع نفسه، ص ١٦٣
(٣) الطبري: **تاريخ الامم والملوك**، م.س. ج٨، ص ٦٦
(٤) **المغرب**، م.س.، ص ١٦١
(٥) ابن عذاري: م.س.، ص ٤٨
(٦) الطبري: م.س. ج٥، ص ٣
(٧) ابن عذاري م.س.، ص ٥٢.

فيهم بربر سوس. كما أن ابن خلدون[1] انصف بدوره الحقيقة حين تحدث عن جور الولاة وضمنهم إسماعيل بن عبد الله المذكور فذكر عنهم ما يلي: «كثر عيثهم بذلك في أموال البربر وجورهم عليهم».

وبالإضافة إلى هذه السياسة الاجتماعية الجائرة، نعلم أن الولاة طبقوا سياسة متحيزة للعنصر العربي على حساب العنصر البربري حيث عاملوا بربر سوس بنوع من الازدراء. ونعتقد أن الدولة الأموية كانت ضالعة في هذه السياسة، ومن ثم فإننا لا نوافق رأي أحد الباحثين[2]، الذي هب إلى القول بأن سياسة الخلافة كانت تتمثل في «توطيد صلات الأخوة والتعاون بين العرب والبربر». فالمؤرخ النزيه لا يمكن أن يلغي مسؤولية الخلافة التي كانت هذه المظالم تتم تحت سمعها وبصرها. فبالرغم من تجاوزات موسى بن نصير وتصرفاته الطائشة أثناء الفتوحات، فإنه نال إعجاب الخليفة الوليد ورضاه، وعظمت منزلته عنده كما يذكر ابن عبد الحكم[3] كما أن توجه وفد بربري إلى دمشق لتقديم شكوى للخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ضد الوالي ابن الحبحاب، ورفض الخليفة استقباله، يدعم فكرة تورط دولة الخلافة وتزكيتها لأعمال الولاة[4].

من هذا المنطلق ـ الظلم الاجتماعي ونظرة الازدراء ـ تشكلت العلاقة الاجتماعية بين الخلفاء وممثليهم من الولاة من جهة، ومنطقة سوس من جهة ثانية، إذ اعتُبرت هذه الأخيرة من قبلهم سوقاً تؤمن حاجياتهم الاستهلاكية من المادة البشرية، ومن ثم بالغوا في إذلال البربر بسبي نسائهم. وتفيض المصادر في هذا الصدد بذكر ولع الخلفاء بالوصائف البربريات وأنواع طرائف منطقة سوس[5].

وكانت الغزوات إحدى وسائل إشباع نهمهم. وثمة سيل من النصوص التاريخية تشير إلى كثرة السبايا التي حصل عليها الفاتحون الذين اقتحموا سوس. فعقبة بن نافع رغم زهده وورعه أصاب من النساء ما لم ير الناس مثلهن. ويبدو أن جمالهن أطار لبه إلى حد جعله يستأسد في سبيهن[6]. وحين يتحدث ابن الأثير عن غزوته إلى سوس الأقصى يذكر أن جنده «سبوا سبياً كثيراً». وأدرّت عليهم هذه التجارة المربحة أموالاً طائلة حتى أن الجارية بيعت بألف دينار[7]. بل إن سبايا إيجلي ـ قاعدة السوس الأقصى ـ تميزن بنكهة خاصة، فبعن بأثمان خيالية[8].

---

(١) **العبر**، م.س. ج٦، ص ١١٩

(٢) صابر محمد دياب: «انتشار الاسلام وحركة الاندماج ببلاد المغرب في عصر الولاة»، ص ٣٠٣ بحث نشر في **مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي**، العدد السادس، عام ١٤٠٣ ـ ١٤٠٤ هـ.

(٣) **فتوح إفريقية والاندلس**، م.س.، ص ٧٠

(٤) انظر الطبري: م.س.، ص ٢٦٤

(٥) ابن خلدون: م.س.، ص ١١٩ ـ ابن عذاري. م.س.، ص ٥٢.

(٦) يقول الحميري وهو يتحدث عن فتح عقبة لإيجلي، قاعدة السوس الأقصى: «وافتتحها فأخرج منها سبياً لم يرَ مثله حسناً». انظر **الروض المعطار**، م.س.، ص ٣٣٠ وكذلك **الاستبصار**، م.س.، ص ٢١٢

(٧) **الكامل**. ج ٣، ص ٣٠٨

(٨) المالكي: **رياض النفوس**. ج١، بيروت، ١٩٨٣، ص ٣٨ انظر أيضاً ابن عذاري: م.س.، ص ٢٧ وكذلك النويري: م.س.، ص ١٩٢.

أما موسى بن نصير فقد كان «بطل السبايا» دون منازع، حتى أن أبا شيب الصدفي قال عنه: «لم يسمع في الإسلام بمثل سبايا موسى بن نصير»[١]. وحسبنا أنه سخَّر في سبيل تحقيق ذلك ابنيه عبد الله ومروان، فنجح كل منهما في الحصول على مائة ألف رأس[٢]، حتى قيل إن ما غنماه يضاهي أو يفوق ما غنمه المسلمون في فتح فارس وغيرها من الأقاليم التي تم فتحها في القرن الأول الهجري[٣].

ويذكر بعض المؤرخين أن مروان بن موسى لما أتى إلى أبيه قادماً من سوس قال لرجاله: «مروا لكل من خرج مع والدي بوصيف أو وصيفة»[٤] وهو نص ذو مغزى عميق في الدلالة على العدد الهائل من السبايا التي حصل عليها بسوس، وهو عدد يحدده ابن قتيبة[٥] بأربعين ألفاً، في حين يصل به الحميدي إلى مائة ألف[٦].

والدور نفسه قام به حبيب بن أبي عبيدة الذي بعثه عبد الله بن الحبحاب لغزو سوس «فأصاب من السبي أمراً عظيماً»[٧] وهذا ما يفسر اكتظاظ أسواق الشرق وقصور الخلفاء وكبار الموظفين بالوصائف السوسيات.

وعلاوة على هذا السلوك تجاه بربر سوس، اتبع الولاة سياسة ضرائبية جائرة تمثلت في إجبارهم على أداء إتاوات لاشرعية. ورغم اعتناقهم الإسلام فإنهم اعتُبروا في عداد «دار الحرب». ولم ترفع عنهم الجزية سواء أسلموا أو لم يسلموا.

ولم يُقدَّر لعمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي الورع ولا لواليه التقي أبي المهاجر أن يستأصلا شأفة هذه السياسة الاجتماعية الجائرة، لأن الأول لم يُعمر ـ للأسف ـ طويلاً[٨] بينما استبدل الثاني بوال مستبد. ويدل هذا التغيير على رغبة الخلفاء الذين جاؤوا بعد عمر بن عبد العزيز على مواصلة السياسة الاجتماعية القديمة بكل مثالبها. فلم يكن تنصيب إسماعيل بن عبد الله عاملاً على السوس الأقصى سوى ترجمة أمينة لهذه الرغبة، وهذا ما يفسر إقدام هذا الوالي ـ المتأثر بمدرسة الحجاج بن يوسف ـ على إثقال كاهل سكان سوس بضرائب غير ضريبة الخراج.

وليس من المستبعد أن يكون ممثل عن بربر سوس قد توجه ضمن الوفد البربري نحو دمشق لمقابلة الخليفة وتقديم الشكوى إليه ضد الظلم الاجتماعي الذي يُمارسه الولاة، ولوضع الخلافة أمام

(١) البكري. م.س.، ص ١٦٢ انظر ايضاً: TERRASSE: op.cit., p.81.
(٢) ابن خلكان: م.س. ج٥، ص ٣١٩
(٣) ابن عبد الحكم: م.س.، ص ٦٩
(٤) ابن عذاري: م.س.، ص ٤٤.
(٥) **الإمامة والسياسة**. ج٢، ص ٥٩.
(٦) ينقل ابن خلكان هذا العدد من الحميدي في **جذوة المقتبس**. انظر: **وفيات الأعيان**، م.س. ج ٥، ص ٣١٩
(٧) ابن عذاري: م.س.، ص ٥١
(٨) من المعلوم أن هذا الخليفة الأموي لم يحكم سوى فترة قصيرة امتدت بين ٩٩ و ١٠١ هـ. وعن إصلاحاته انظر: عماد الدين خليل: **ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز**. الفصل الثالث: الأهداف الكبرى، ص ٦٠ وما بعدها، الطبعة السادسة، بيروت، ١٩٨١

مسؤولياتها، وهو افترض محتمل على أساس أن الثورة التي قامت في الشمال، سرعان ما انتقلت إلى السوس الأقصى، وهو ما يبرهن على أن التنسيق كان تاماً بين ممثلي مختلف المناطق.

يستخلص مما تم ذكره عن العلاقة الاجتماعية بين دولة الخلافة والسوس أن هذه الأخيرة عانت من الظلم الاجتماعي، وأن الأولى رغم وقوفها على أمراض سياستها الاجتماعية لم تقم بأي حركة إصلاحية في هذا الميدان. وباستثناء عمر بن عبد العزيز، فإن أغلب الخلفاء صمّوا آذانهم تجاه تلك الحالة المزرية، مما سيكون له أكبر الأثر في صياغة العلاقة السياسية بين الجانبين.

العلاقات السياسية:

لا سبيل إلى الشك في أن العلاقات الاقتصادية والاجتماعية السالف ذكرها، بما حملت من أخطاء، ساهمت في صياغة العلاقات السياسية بين الجانبين. كما أن الصراع الذي احتدم بين الولاة العرب من قيسيين ويمنيين حول السلطة، وهو الصراع الذي نقله هؤلاء معهم، أثّر لا محالة في العلاقة بين الجانبين، إذ أن تغير الولاة السريع، والبطش ببعضهم البعض في سبيل تحقيق مصالحهم، أسفر عن خلق مناخ سياسي مضطرب وغير مستقر[١]. ومن هذه الزاوية ستتحدد علاقة الخلافة الإسلامية مع سوس سياسياً.

أما المفاهيم الإسلامية العامة التي ارتكزت عليها الخلافة نظرياً، والتي تتمثل في الثالوث: الإسلام/ العروبة/ الدولة المركزية، فإنها لم تكن قد تأصلت في منطقة سوس، ولم تكن قد توضحت معالمها بعد، وبالتالي فإن مفهوم الأمة، وعلاقة الولاية بالخلافة لم تكن واضحة المعالم هي كذلك من جانب الطرف الثاني أي سوس. أما دولة الخلافة فقد اعتبرت هذه الأخيرة جزءاً لا يتجزأ من الأمبراطورية الإسلامية. وبعد سنة ٩٣ هـ أصبحت من الوجهة القانونية جزءاً من ولاية المغرب التابعة لسلطة دمشق. لكن هل خضعت تماماً من الناحية الواقعية؟.

إن كوتيي[٢] الذي عمّم حكمه على المغرب ككل يذكر أن الذين خضعوا للسلطة العربية هم السكان المتأثرون بالحضارة اللاتينية Latinisés، بينما يُصدر مونيه Meunie [٣] حكماً آخر ينفي فيه أن يكون الجنوب المغربي ـ بما في ذلك سوس ـ قد ارتبط بالحكم المركزي.

وبما أن سوس كانت تدخل ضمن المناطق الواقعة خارج إطار الحضارة اللاتينية فإن الحكمين متشابهان، ولكنهما معاً جانبا الصواب ـ حسبما نعتقد ـ حين فسّرا هذه الظاهرة بمعزل عن معرفة طبيعة الواقع الاقتصادي ـ الاجتماعي الذي أفرزها. ونميل إلى الظن بأن التفسير السوي والموضوعي لهذه العلاقات يكمن في الطريقة التي فهم بها أهل سوس سياسة العرب الجديدة من خلال الممارسات الاجتماعية والاقتصادية التي مارسها هؤلاء. لقد كان الجانب الأول على استعداد

---

(١) محمود إسماعيل: **قضايا في التاريخ الإسلامي**. بيروت، ١٩٧٤، ص ١٢٤ ـ ١٢٥

(٢) *Le passé de l'Afrique du Nord,* p.267.

(٣) *Le Maroc saharien,* p.191.

تام للانصهار في دولة الخلافة، ولم تسبب له المفاهيم السياسية الجديدة التي جاء بها الفاتحون أي إزعاج، بل على العكس من ذلك، شكّلت الإطار المرجعي الذي كان من الممكن أن تصاغ من خلاله علاقات الاندماج السياسي لولا أنه لاحظ بمرارة أن المبادىء التي جاء بها الإسلام في واد، وما طبّقه الولاة من ممارسات مضادة في واد آخر. ومن هذه النقطة كانت ردود الفعل ضد السلطة العربية.

إن اعتبار منطقة سوس معبراً ومركزاً لجلب الغنائم والذهب والفضة والعبيد(١)، واستغلالها اقتصادياً، كذا استبداد الولاة أو من ينوب عنهم(٢) كلها عوامل صاغت العلاقة السياسية بين الخلافة الإسلامية والسوس.

وتحت تأثير هذه المعطيات، جاءت ردود الفعل المضادة سريعة وعنيفة: ففي سنة ٨٢ هـ زحف ميسرة نحو السوس، والتحم مع عامتها فقتلوا عاملها إسماعيل بن عبد الله بن الحبحاب(٣). ولم تكن هذه الانتفاضة هي الأولى والأخيرة، بل استمرت الثورات تندلع من حين لآخر. ولا يساورنا شك في أن بربر سوس ساهموا ـ من المنطلقات نفسها ـ في معركة الاشراف التي حصدوا فيها زهرة الجيش العربي، وأذاقوه هزيمة كبرى(٤). لكن هل ردود الفعل هذه كانت تحركها نزعة انفصالية ضيقة؟.

بالتأكيد أن الجواب بالنفي. وإلا فكيف نفسر التنسيق الذي حدث بين ثورة سوس وثورة طنجة ثم باقي أنحاء المغرب حتى إفريقية؟ ألم يعتنق الثوار السوسيون مذهب الخوارج وهو مذهب إسلامي بعيد عن الشوفينية الضيقة، بل يدعو إلى إقامة دولة الخلافة على أساس من العدالة الاجتماعية والشورى في الحكم؟

إن كل هذه الحجج، وهي على سبيل المثال ـ لا الحصر ـ تدل على أن العلاقة السياسية بين دولة الخلافة ومنطقة سوس تأثرت ببعض التجاوزات السياسية التي مارسها الولاة ومحاولة أهل سوس وضع حد لها.

العلاقات الثقافية:

يبقى أخيراً أن نعالج العلاقات الثقافية بين دولة الخلافة وسوس. ويبدو أنه من السابق لأوانه الحديث عن علاقة ثقافية في عصر الولاة. إلا أن دخول الإسلام واللغة العربية إلى سوس يُعدّ ظاهرة ثقافية لها أهميتها حتى أن أحد الباحثين اعتبر الفتح الإسلامي للمغرب وضمنه سوس فتحاً ثقافياً(٥). ولذلك فمن نافلة القول إن تلك العلاقات تأثرت بسابقاتها، إضافة إلى عاملي العروبة والإسلام، إذ بدأ تشكل الثقافة السوسية من جديد يتأثر بهذين العاملين. وهذا ما يفسر بناء عقبة بن نافع لمسجد

(١) TERRASSE, op.cit., p.99.

(٢) انظر ما سبق ذكره عن العلاقات الإقتصادية والاجتماعية.

(٣) ابن عذاري: م.س.، ص ٥٢ ـ ابن خلدون: م.س.، ص ١١٠ ـ الناصري: م.س.، ص ٠٨.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٠٩ ويذكر أنه «في عقب موقعة الأشراف انتفض المغرب على ابن الحبحاب من سائر جهاته».

(٥) الكعاك: **المراكز الثقافية في المغرب**. نقلاً عن صابر محمد دياب، م.س.، ص ٢٩٠.

بالسوس الأقصى(١)، ومصاحبة الفقهاء للحملات العسكرية التي قام بها الفاتحون. وفي هذا المعنى يقول ابن خلكان(٢) وهو يتحدث عن بربر السوس الأدنى: «وترك موسى خلقاً يسيراً(٣) من العرب لتعليم البربر القرآن وفرائض الإسلام» وهذه الظاهرة يقرنها المؤرخون عادة بالفتوحات، فهم يستعملون دائماً العبارة التقليدية «ثم أسلم البربر وحسن إسلامهم». أما بالنسبة لسوس فثمة نص هام أورده عبيد الله بن عبد الحليم يقول فيه: «فقام عقبة من وادي نفيس، فسار حتى نزل بوادي سوس فأرسل إلى قبائل جزولة، فوصلوا الوادي فأسلموا ورجع من هناك وسلك بلاد حاحة»(٤) وهذا النص يدفعنا إلى التساؤل: من الذي وصل إلى وادي سوس فأسلم؟ قبائل جزولة برمتها ـ وهو أمر غير محتمل ـ أم زعماء هذه القبائل وهو الأقرب إلى التصديق؟

إن هذا التساؤل يظل وارداً ما دامت النصوص العربية لا تتسم بالدقة. وقد أثاره عبد الله العروي(٥) عند حديثه عن إسلام أهل المغرب، وهو أمر بديهي إذا ما علمنا أن الإسلام في هذه المرحلة كان لا يزال يتقدم في حوض المتوسط وفي بلاد سوس(٦). والراجح أن هذه المسألة لم تعرف تطوراً إيجابياً إلا بعد سنة ١٠٠ هـ عندما ولِّي إسماعيل بن أبي المهاجر إفريقية والمغرب فأسلم بقية البربر على يديه(٧)، ومع ذلك فإن ثقافة منطقة سوس تأثرت بهذا الإسلام «السطحي».

ولا نعدم من الدلائل ما يثبت هذا الاستنتاج. فابن حوقل(٨) يورد رواية هامة تتضمن خبر لقاء تم بين بعض شراة سوس وأصحاب واصل بن عطاء المتوفى سنة ١٣١ هـ. كما يورد المالكي(٩) نصاً يشير إلى تنقل السكان نحو إفريقية والشرق الإسلامي طلباً للعلم. كما أن استقطاب دعاة الخوارج لبربر سوس، ومشاركة هؤلاء في ثوراتهم، يعكس مدى اهتمامهم بالأيديولوجية الخارجية، وإن ظل اهتماماً سطحياً نظراً لعفويته.

أما مسألة التعريب فظلت أكثر سطحية. وإذا كان القانون العام يفرض أن المغلوب يخضع دائماً للغة الغالب، فليس ثمة دليل يشجع على التأكيد بأن اللسان العربي قد انتشر في سوس بصورة مطلقة.

(١) المالكي. م.س.، ص ٤ وهذا المسجد لم يشك فيه عبيد الله بن الحليم (القرن ٧ ـ ٨ هـ/ ١٣ ـ ١٤ م). واكد ان عقبة هو الذي اسسه. مع أن هذا المؤرخ شكّ في بنائه لمسجد بنفيس. انظر ليفي بروفنسال: «نص جديد عن فتح العرب للمغرب». **صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد**. المجلد الثاني، العدد ١ و ٢، ١٩٥٤، ص: ٢٢٠

(٢) **وفيات الأعيان**: م.س. ج٥، ص ٣٢٠

(٣) يحددها هنري تيراس بـ ٢٧ فقيهاً. انظر مرجعه السابق الذكر، ص ٨٤. بينما الحقيقة هي انهم ١٧ فقط. يُنظر نص عبد الحليم السابق، الصفحة نفسها.

(٤) بروفنسال: «نص جديد عن فتح العرب للمغرب»، م.س.، ص ٢٢٠

(٥) **مجمل تاريخ المغرب**، م.س.، ص ١٣٠

(٦) المرجع نفسه، ص ١٣١

(٧) ابن عذاري: م.س.، ص ٤٨.

(٨) **صورة الأرض**، م.س.، ص ٩٠

(٩) **رياض النفوس**، م.س. ج١، ص ١٩٦.

فالعملة تثبت عكس هذا التصور، حيث ظلت الكتابات المنقوشة في وجهها مزدوجة لزمن طويل، وتكتب باللاتينية والعربية[1]، كما أن اللغة البربرية لم تفقد مكانتها. ومن هنا تصدق شهادة أحد الدارسين[2] ولو أنه عممها على المغرب ككل حين قال: «لكن انتشار اللغة العربية التي حلت محل اللاتينية لم يقض على اللغة البربرية أو لهجات البربر التي كانت منتشرة بوجه خاص في أطراف المغرب والمناطق الجبلية الرعوية».

غير أنه من الانصاف القول إن اللغة العربية ظلت تمارس تأثيراً ولو جانبياً في هذه المرحلة التاريخية، إذ إن معرفة القرآن، وشرح آياته والتفقه في أمور الدين كان دافعاً أساسياً لتكوين «أطر دينية» هي بالذات تلك التي بدأت تمدنا بأسمائها كتب الطبقات والتراجم ابتداء من القرن الثاني الهجري.

ومهما كانت هشاشة هذا التلاقح الأولي، فإنه كان أعمق أثراً من التجربتين السابقتين الرومانية والبيزنطية. فإذا كان الرومانيون والبيزنطيون قد باؤوا بالفشل في محاولة تحويل ثقافة سوس نحو هويتهم، فإن صلات الخلافة الإسلامية بالمنطقة ثقافياً، قررت وإلى الأبد مصير الثقافة السوسية وأكسبتها نهائياً صبغة الثقافة العربية الإسلامية.

ملاحظات وتقييم:

بعد أن عرضنا لعلاقة الخلافة الإسلامية بمنطقة سوس، نحاول إبداء بعض الملاحظات انطلاقاً من القراءة السابقة.

١ ـ لم تجر صياغة هذه العلاقة بمحض الصدفة، فسوس تبعد عن دمشق وبغداد بمسافة طويلة وشاقة تبلغ خمسة آلاف ميل. وكانت مدة السفر تستغرق حوالي سبعة شهور. كما أن وسائل النقل كانت بدائية وبطيئة، ناهيك عن الصعوبات التي تعترض المسافرين، وأهمها مشكل التزود بالماء والمؤن، إضافة إلى أخطار قطاع الطرق. إلا أن هذه العوامل كلها بما في ذلك البعد الجغرافي لم تحل دون اهتمام دولة الخلافة بمنطقة سوس. معنى ذلك أن ثمة عوامل أخرى كانت وراء هذا الاهتمام.

٢ ـ إن هذه العلاقات لم تخضع لتكافؤ الفرص، ومن ثم فإنها تدخل في إطار علاقة المركز بالمحيط، وهي علاقات غالباً ما تتحكم فيها قاعدة الاستغلال.

٣ ـ تميزت هذه العلاقات بشموليتها، وقد تحددت هذه الشمولية عبر استراتيجية تقوم على مرتكزات عسكرية سياسية، اقتصادية، دينية وسوسيو ـ ثقافية إذ شكلت سوس في عصر الولاة القاعدة التي انطلقت منها الحملات العسكرية نحو السودان الغربي، ومن ثم كانت المدخل الطبيعي لامتداد الإسلام وتسرب الثقافة العربية نحو إفريقيا السوداء. وبالأهمية نفسها أصبحت المنطقة التي تتمحور

(١) العروي: م.س.، ص ١١٥

(٢) صابر محمد دياب: م.س.، ص ٢٩٧.

حولها آفاق وحدة شمال المغرب وجنوبه، كذا شرقه وغربه في فترة لاحقة. كما أصبحت أيضاً المنطقة المهيأة للعب دور الوسيط في تجارة الترانزيت.

٤ ـ ويمكن القول أيضاً إن علاقة الخلافة الإسلامية بسوس اتسمت بكونها علاقة «متميزة» مباينة لعلاقتها مع المناطق المغربية الأخرى بسبب أهميتها الاستراتيجية والاقتصادية.

٥ ـ إن التحول الذي عرفته سوس في عصر الولاة، وظهور إفرازات جديدة على مستوى الدين واللغة والتعايش، وتداخل أنماط الحضارات، كل ذلك سيجعل هذه العلاقة «المكثفة» ترتكز على الرؤية المستقبلية لا على مسألة الظرفية.

٦ ـ تحكمت في هذه العلاقات عوامل متناقضة تقوم على ثنائية يمكن الوقوف عليها من خلال المواقف والمواقف المضادة لطرفي العلاقة.

ـ سياسياً يمكن لمس هذه الثنائية من خلال موقف بربر سوس من السلطة العربية المتأرجح بين القبول والرفض (قبول الإسلام كدين للمساواة، ورفض سياسة الولاة انطلاقاً من جعل الإسلام نفسه منظومة مرجعية لتطلعاتهم).

ـ اقتصادياً يمكن الوقوف على ذلك أيضاً من خلال اهتمام الخلفاء الأمويين والعباسيين بتنمية منطقة سوس (حفر آبار، القيام بعمليات الري، استثمار وادي سوس) وفي الوقت نفسه عدم استفادة بربر سوس من هذه التنمية.

ـ اجتماعياً تظهر هذه الثنائية كذلك في القضاء على السياسة الاجتماعية الاستبدادية التي ظلت سائدة طوال العصر البيزنطي، القضاء على التمييز الاجتماعي لليهود. وفي الوقت نفسه ازدراء العنصر المحلي واعتباره فيئاً، بل تشبيئه أحياناً.

ـ ثقافياً ودينياً عمل الفاتحون العرب على نشر الإسلام والثقافة العربية، لكنهم أهملوا التراث المحلي والثقافة البربرية التي تميّز بها سكان سوس.

٧ ـ ظل الإسلام يؤطر هذه العلاقات وإن اختلف المنظور الذي تبناه طرفا العلاقة إذ إن العنصر المحلي وظفه في تحقيق شخصيته وهويته وأهدافه الاجتماعية خاصة المساواة التي كان يتطلع إليها، في حين وظفه الجانب العربي وبالخصوص بعض الولاة في تحقيق مآربهم، وإن كان الهدف ظل سامياً بالنسبة لولاة آخرين.

٨ ـ إن هذه العلاقة لم تأت بحلول جذرية لمشاكل سوس، وما قيام الثورات والانتفاضات طيلة عصر الولاة إلا حجة تدعم هذا الزعم.

٩ ـ ستلعب هذه العلاقة دوراً أساسياً في تحديد مصير المنطقة بالنسبة للعصور اللاحقة.

١٠ ـ وأخيراً ثمة ملاحظة لها أهميتها وهي أن معرفة طبيعة كل هذه العلاقات تبقى خاضعة لمصدر واحد وهو المصدر العربي نظراً لغياب مصدر محلي كما أسلفنا القول.

الخلاصة العامة هي أن قاعدة الخلافة الإسلامية بالسوس اتخذت أشكالاً متباينة، وشملت شتى المجالات. غير أنها لم تكن علاقة متكافئة، بل وُظفت في الغالب الأعم لصالح دولة الخلافة على حساب منطقة سوس، مما يجعلنا نصف هذه الأخيرة بأنها كانت «بقرة حلوب» في ملكية دولة الخلافة. غير أن الباحث المنصف لا يمكن إلا أن يقر بأن تدخل هذه الأخيرة قد ساهم بشكل أو بآخر في تنمية سوس. وحسبنا أنها ـ أي سوس ـ أصبحت بعد عصر الولاة تمارس تأثيراً واضحاً في التاريخ المغربي والإسلامي كذا حوض البحر المتوسط وأوروبا، وغدت في القرون اللاحقة معبراً هاماً تلتقي فيه التيارات الثقافية المتنوعة، وتحتك فيه الحضارات المتباينة، والديانات والأجناس على اختلافها.

وعلى مر هذه القرون، وحتى مطلع العصر الحديث، ظلت سوس بفضل موقعها الهام المتواجد في الطريق الذاهب نحو السودان تلعب دوراً هاماً في ربط المبادلات بين السودان والشرق، فضلاً عن ترويج التجارة مع أوروبا وما نجم عن كل كذلك من تطوير لشمال المغرب.

وفي تقديري، أن منطقة سوس تهيأت في عصر الولاة لكي تكون الخيط الموجه لعلاقات الشرق الإسلامي مع الغرب المسيحي، ورسم سياسة متوسطية لها طابعها الخاص.

وأخيراً يحق للباحث أن يتساءل: ألم تكن السيادة الإسلامية على منطقة سوس من ضمن العوامل التي جعلت الأوروبيين يفتقرون إلى ذهب السودان، ومن ثم تتأخر نهضتهم حتى مطلع العصر الحديث؟ إنها تساؤلات عن مواضيع جديرة بأن يستقصيها المشتغلون في حقل التاريخ بالبحث والدراسة.

فهرس الموضوعات

تاريخ الغرب الإسلامي

قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة

د. ابراهيم القادري بوتشيش

أستاذ محاضر بجامعة مولاي إسماعيل
كلية الآداب . مكناس - المغرب

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

لدار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت ـ لبنان
ص.ب: ١١١٨١٣
تلفون: ٣٠٩٤٧٠
٣١٤٦٥٩

الطبعة الأولى
ايلول (سبتمبر) ١٩٩٤